الصباح الإسلامية
09
العدد 2459 - السنة التاسعة
الخميس 28 رجب 1437 - الموافق 5 مايو 2016
Thursday 5 May 2016 - No.2459 - 9th Year
إعداد : ياسر السيد

قبسات مضيئة من «الإسراء والمعراج» العظيمة

كانت رحلة الإسراء اختباراً جديداً للمسلمين في إيمانهم ويقينهم ، وفرصة لمشاهدة النبي – صلى الله عليه وسلم – عجائب القدرة الإلهية ، والوقوف على حقيقة المعاني الغيبيّة ، والتشريف بمناجاة الله في موطن لم يصل إليه بشرٌ قطّ ، إضافة إلى كونها سبباً في تحقيق أحزانه وهمومه ، وتجديد عزمه على مواصلة دعوته والتصدّي لأذى قومه .

فقد شهدت الأيّام السابقة لتلك الرحلة العديد من الابتلاءات ، كان منها موت زوجته خديجة بنت خويلد رضي الله عنها ، والتي كانت خير عون له في دعوته ، ثم تلاها موت عمّه أبي طالب ، ليفقد بذلك الحماية التي كان يتمتّع بها ، حتى تجرّأت قريش على إيذائه – صلى الله عليه وسلم – والنيل منه ، ثم زادت المحنة بامتناع أهل الطائف عن الاستماع له ، والقيام بسبّه وطرده ، وإغراء السفهاء لرميه بالحجارة ، مما اضطرّه للعودة إلى مكّة حزيناً كسير النفس .

ومع اشتداد المحن وتكاثر الأحزان ، كان النبي – صلى الله عليه وسلم – في أمسّ الحاجة إلى ما يعيد له طمأنينته ، ويقوّي من عزيمته ، فكانت رحلة الإسراء والمعراج ، حيث أسري به – صلى الله عليه وسلم – إلى بيت المقدس ، ثم عُرج به إلى السماوات العُلى ، ثم عاد في نفس اليوم .

وتبدأ القصّة عندما نزل جبريل إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – بصحبة ملكين آخرَيْن ، فأخذوه وشقّوا صدره ، ثم انتزعوا قلبه وغسلوه بماء زمزم ، ثم قاموا بملء قلبه إيماناً وحكمة ، وأعادوه إلى موضعه .

ثم جاء جبريل عليه السلام بالبراق ، وهي دابّة عجيبة تضع حافرها عند منتهى بصرها ، فركبه النبي – صلى الله عليه وسلم – وانطلقا معاً ، إلى بيت المقدس .

وفي هذه المدينة المباركة كان للنبي – صلى الله عليه وسلم – موعدٌ للقاء بإخوانه من الأنبياء عليهم السلام ، فقد اصطحبه جبريل عليه السلام إلى المسجد الأقصى ، وعند الباب ربط جبريل البراق بالحلقة التي يربط بها الأنبياء جميعاً ، ثم دخلا إلى المسجد ، فصلى النبي – صلى الله عليه وسلم – بالأنبياء إماماً ، وكانت صلاته تلك دليلاً على مدى الارتباط بين دعوة الأنبياء جميعاً من جهة ، وأفضليّته عليهم من جهة أخرى .

ثم بدأ الجزء الثاني من الرّحلة ، وهو الصعود في الفضاء وتجاوز السماوات السبع ، وكان جبريل عليه السلام يطلب الإذن بالدخول عند الوصول إلى كل سماء ، فيؤذن له وسط ترحيب شديد من الملائكة بقدوم سيد الخلق وإمام الأنبياء – صلى الله عليه وسلم – .

وفي السماء الدنيا ، التقى – صلى الله عليه وسلم – بآدم عليه السلام ، فتبادلا السلام والتحيّة ، ثم دعا آدم له بخير ، وقد رأه النبي – صلى الله عليه وسلم – جالساً وعن يمينه وشماله أرواح ذريّته ، فإذا التفت عن يمينه ضحك ، وإذا التفت عن شماله بكى ، فسأل النبي – صلى الله عليه وسلم – جبريل عن الذي رآه ، فذكر له أن أولئك الذين كانوا عن يمينه هم أهل الجنّة من ذرّيته فيسعد برؤيتهم ، والذين عن شماله هم أهل النار فيحزن لرؤيتهم .

ثم صعد النبي – صلى الله عليه وسلم – السماء الثانية ليلتقي بـ عيسى و يحيى عليهما السلام ، فاستقبلاه أحسن استقبال وقالا : « مرحباً بالأخ الصالح والنبيّ الصالح » .

وفي السماء الثالثة ، رأى النبي – صلى الله عليه وسلم – أخاه يوسف عليه السلام وسلّم عليه ، وقد وصفه عليه الصلاة والسلام بقوله : (..وإذا هو قد أعطي شطر الحسن) رواه مسلم .

ثم التقى بأخيه إدريس عليه السلام في السماء الرابعة ، وبعده هارون عليه السلام في السماء الخامسة .

ثم صعد جبريل بالنبي – صلى الله عليه وسلم – إلى السماء السادسة لرؤية أخيه موسى عليه السلام ، وبعد السلام عليه بكى موسى فقيل له : « ما يبكيك ؟ » ، فقال : « أبكي : لأن غلاماً بُعث بعدي ، يدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخلها من أمتي » .

ثمّ كان اللقاء بخليل الرحمن إبراهيم عليه السلام في السماء السابعة ، حيث رآه مُسنداً ظهره إلى البيت المعمور – كعبة أهل السماء – الذي يدخله كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة لا يعودون إليه أبداً ، وهناك استقبل إبراهيم عليه السلام النبي – صلى الله عليه وسلم – ودعا له ، ثم قال : (يا محمد ، أقرئ أمتك مني السلام ، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة ، عذبة الماء ، وأنها قيعان ، وأن غراسها : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر) رواه الترمذي .

وبعد هذه السلسلة من اللقاءات المباركة ، صعد جبريل عليه السلام بالنبي– صلى الله عليه وسلم – إلى سدرة المنتهى ، وهي شجرة عظيمة القدر كبيرة الحجم ، ثمارها تشبه الجرار الكبيرة ، وأوراقها مثل آذان الفيلة ، ومن تحتها تجري الأنهار ، وهناك رأى النبي– صلى الله عليه وسلم – جبريل عليه السلام على صورته الملائكية وله ستمائة جناح ، يتساقط منها الدرّ والياقوت .

ثم حانت أسعد اللحظات إلى قلب النبي – صلى الله عليه وسلم – ، حينما تشرّف بلقاء الله والوقوف بين يديه ومناجاته ، لتتصاغر أمام عينيه كل الأهوال التي عايشها ، وكل المصاعب التي مرّت به ، وهناك أوحى الله إلى عبده ما أوحى ، وكان مما أعطاه خواتيم سورة البقرة ، وغفران كبائر الذنوب لأهل التوحيد الذين لم يخلطوا إيمانهم بشرك ، ثم فُرض عليه وعلى أمّته خمسين صلاة في اليوم والليلة .

وعندما انتهى – صلى الله عليه وسلم – من اللقاء الإلهيّ مرّ في طريقه بموسى عليه السلام ، فلما رآه سأله : (بم أمرك ؟) ، فقال له : (بخمسين صلاة كل يوم) ، فقال موسى عليه السلام : (أمتك لا تستطيع خمسين صلاة كل يوم ، وإني والله قد جربت الناس قبلك ، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف) ، فعاد النبي صلى الله عليه وسلم – إلى ربّه يستأنفه في التخفيف فأسقط عنه بعض الصلوات ، فرجع إلى موسى عليه السلام وأخبره ، فأشار عليه بالعودة وطلب التخفيف مرّة أخرى ، وتكرّر المشهد عدّة مرّات حتى وصل العدد إلى خمس صلوات في اليوم والليلة ، واستحى النبيّ – صلى الله عليه وسلم أن يسأل ربّه أكثر من ذلك ، ثم أمضى الله عزّ وجل الأمر بهذه الصلوات وجعلها بأجر خمسين صلاة .

وقد شاهد النبي – صلى الله عليه وسلم – في هذه الرحلة الجنّة ونعيمها ، وأراه جبريل عليه السلام الكوثر ، وهو نهر أعطاه الله لنبيّه إكراماً له ، حافتاه والحصى الذي في قعره من اللؤلؤ ، وتربته من المسك ، وكان عليه الصلاة والسلام كلما مرّ بملأ من الملائكة قالوا له : « يا محمد ، مر أمتك بالحجامة » .

وفي المقابل ، وقف النبي – صلى الله عليه وسلم – على أحوال الذين يعذّبون في نار جهنّم ، فرأى أقواماً لهم أظفار من نحاس يجرحون بها وجوههم وصدورهم ، فسأل جبريل عنهم فقال : « هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ، ويقعون في أعراضهم » ، ورأى أيضاً أقواماً تقطع ألسنتهم وشفاههم بمقاريض من نار ، فقال له جبريل عليه السلام : « هؤلاء خطباء أمتك من أهل الدنيا ، كانوا يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب ، أفلا يعقلون ؟ » .

ورأى شجرة الزّقوم التي وصفها الله تعالى بقوله : ﴿ والشجرة الملعونة في القرآن ﴾ (الإسراء : 60) ، وقوله : ﴿ إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم ، طلعها كأنه رءوس الشياطين ﴾ (الصافات : 64 – 65) .

ورأى مالكاً خازن النار ، ورأى المرأة المؤمنة التي كانت تمشط شعر ابنة فرعون ، ورفضت أن تكفر بالله فأحرقها فرعون بالنار ، ورأى الدجّال على صورته ، أجعد الشعر ، أعور العين ، عظيم الجثّة ، أحمر البشرة ، مكتوب بين عينيه « كافر » .

وفي تلك الرحلة جاءه جبريل عليه السلام بثلاثة آنية ، الأوّل مملوء بالخمر ، والثاني بالعسل ، والثالث باللبن ، فاختار النبي – صلى الله عليه وسلم – إناء اللبن فأصاب الفطرة ، ولهذا قال له جبريل عليه السلام : « أما إنك لو أخذت الخمر غوت أمتك » رواه البخاري .

وبعد هذه المشاهدات ، عاد النبي – صلى الله عليه وسلم – إلى مكّة ، وأدرك أن ما شاهده من عجائب ، وما وقف عليه من مشاهد ، لن تتقبّله عقول أهل الكفر والعناد ، فأصبح مهموماً حزيناً ، ولما رآه أبوجهل على تلك الحال جاءه وجلس عنده ثم سأله عن حاله ، فأخبره النبي – صلى الله عليه وسلم – برحلته في تلك الليلة ، ورأى أبو جهل في قصّته فرصة للسخرية والاستهزاء ، فقال له : « أرأيت إن دعوت قومك أتحدثهم بما حدثتني ؟ » ، فقال له النبي – صلى الله عليه وسلم – : (نعم) ، فانطلق أبو جهل ينادي بالناس ليسمعوا هذه الأعجوبة ، فصاحوا متعجّبين ، ووقفوا ما بين مكذّب ومشكك ، وارتدّ أناسٌ ممن آمنوا به ولم يتمكن الإيمان في قلوبهم ، وقام إليه أفراد من أهل مكّة يسألونه عن وصف بيت المقدس، فشقّ ذلك على النبي – صلى الله عليه وسلم – لأن الوقت الذي بقي فيه هناك لم يكن كافياً لإدراك الوصف ، لكنّ الله سبحانه وتعالى مثّل له صورة بيت المقدس فقام يصفه بدقّة بالغة ، حتى عجب الناس وقالوا : « أما الوصف فقد أصاب » ، ثم قدّم النبي – صلى الله عليه وسلم – دليلاً آخر على صدقه ، وأخبرهم بشأن القافلة التي رآها في طريق عودته ووقت قدومها ، فوقع الأمر كما قال .

وفي ذلك الوقت انطلق نفرٌ من قريش إلى أبي بكر رضي الله عنه يسألونه عن موقفه من الخبر ، فقال لهم : « لئن كان قال ذلك لقد صدق » ، فتعجّبوا وقالوا : « أو تصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح ؟ » ، فقال : « نعم ؛ إني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك ، أصدقه بخبر السماء في غدوة أو روحة » ، فأطلق عليه من يومها لقب « الصديق » .

وكان في هذه المواقف المتتابعة حكم إلهيّة عظيمة ، ففي تصديق أبي بكر رضي الله عنه إبراز لأهميّة الإيمان بالغيب والتسليم له طالما صحّ فيه الخبر ، وفي ردّة ضعفاء الإيمان تمحيصٌ للصف الإسلامي من شوائبه، حتى يقوم الإسلام على أكتاف الرّجال الذين لا تهزّهم المحن أو تزلزلهم الفتن ، وفي تكذيب كفار قريش للنبي – صلى الله عليه وسلم – وتماديها في الطغيان والكفر تهيئة من الله سبحانه لتسليم القيادة إلى القادمين من المدينة ، وقد تحقّق ذلك عندما طاف النبي – صلى الله عليه وسلم – على القبائل طلباً للنصرة ، فالتقى بهم وعرض عليهم الإسلام ، فبادروا إلى التصديق والإيمان ، ليكونوا سبباً في قيام الدولة الإسلامية وانتشار دعوتها في الجزيرة العربية .

الأخلاق والآداب العامة .. في الإسلام

الأخلاق في الإسلام عبارة عن المبادئ والقواعد المنظمة للسلوك الإنساني ، والتي يحددها الوحي لتنظيم حياة الإنسان على نحو يحقق الغاية من وجوده في هذا العالم على الوجه الأكمل والأتم ، ويتميز هذا النظام الإسلامي في الأخلاق بطابعين :

الأول : أنه ذو طابع إلهي، بمعنى أنه مراد الله سبحانه وتعالى .

الثاني : أنه ذو طابع إنساني، أي للإنسان مجهود ودخل في تحديد هذا النظام من الناحية العملية .

وهذا النظام هو نظام العمل من أجل الحياة الخيرية ، وهو طراز السلوك وطريقة التعامل مع النفس والله والمجتمع .

وهو نظام يتكامل فيه الجانب النظري مع الجانب العملي منه، وهو ليس جزءًا من النظام الإسلامي العام فقط ، بل هو جوهر الإسلام ولبه وروحه السارية في جميع نواحيه ؛ إذ النظام الإسلامي – على وجه العموم –مبني على مبادئه الخلقية في الأساس ، بل إن الأخلاق هي جوهر الرسالات السماوية على الإطلاق. فالرسول صلى الله وسلم يقول : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » [رواه أحمد في مسنده] .

فالغرض من بعثته –صلى الله عليه وسلم – هو إتمام الأخلاق ، والعمل على تقويمها ، وإشاعة مكارمها ، بل الهدف من كل الرسالات هدف أخلاقي ، والدين نفسه هو حسن الخلق .

ولما للأخلاق من أهمية نجدها في جانب العقيدة حيث يربط الله سبحانه وتعالى ورسوله –صلى الله عليه وسلم – بين الإيمان وحسن الخلق ، ففي الحديث لما سئل الرسول صلى الله عليه وسلم : أي المؤمنين أفضل إيمانا ؟ قال صلى الله عليه وسلم : «أحسنهم أخلاقا» [رواه الطبراني في الأوسط] .

ثم إن الإسلام عدّ الإيمان برًّا، فقال تعالى : (لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ) (البقرة: 177)

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « البر حسن الخلق » [رواه مسلم]. والبر صفة للعمل الأخلاقي أو هو اسم جامع لأنواع الخير.

وكما نجد الصلة بين الأخلاق والإيمان ، نجدها كذلك بين الأخلاق والعبادة إذ إن العبادة روح أخلاقية في جوهرها؛ لأنها أداء للواجبات الإلهية. ونجدها في المعاملات – وهي الشق الثاني من الشريعة الإسلامية بصورة أكثر وضوحا.

وهكذا نرى أن الإسلام قد ارتبطت جوانبه برباط أخلاقي ، لتحقيق غاية أخلاقية، الأمر الذي يؤكد أن الأخلاق هي روح الإسلام ، وأن النظام التشريعي الإسلامي هو كيان مجسد لهذه الروح الأخلاقية .

الخلق نوعان

1– خلق حسن : وهو الأدب والفضيلة، وتنتج عنه أقوال وأفعال جميلة عقلا وشرعا .

2– خلق سيئ : وهو سوء الأدب والرذيلة، وتنتج عنه أقوال وأفعال قبيحة عقلا وشرعا.

وحسن الخلق من أكثر الوسائل وأفضلها إيصالا للمرء للفوز بمحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والظفر بقربه يوم القيامة حيث يقول : « إن أحبكم إلي وأقربكم مني مجلسا يوم القيامة أحسنكم أخلاقا» [رواه الترمذي] .

الأخلاق والممارسة الإيمانية

إن الأخلاق في الإسلام لا تقوم على نظريات مذهبية ، ولا مصالح فردية ، ولا عوامل بيئية تتبدل وتتلون تبعا لها ، وإنما هي فيض من ينبوع الإيمان يشع نورها داخل النفس وخارجها ، فليست الأخلاق فضائل منفصلة ، وإنما هي حلقات متصلة في سلسلة واحدة ، عقيدته أخلاق ، وشريعته أخلاق ، لا يخرق المسلم إحداها إلا أحدث خرقا في إيمانه .. يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ولا يسرق السارق وهو مؤمن » [رواه البخاري].

وسئل صلى الله عليه وسلم : أيكذب المؤمن ؟ قال: (لا) ثم تلا قوله تعالى: (إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون) (النحل:105) .

فالأخلاق دليل الإسلام وترجمته العملية ، وكلما كان الإيمان قويا أثمر خلقا قويا.

دوام الأخلاق وثباتها

كما أن الأخلاق في الإسلام ليست لونا من الترف يمكن الاستغناء عنه عند اختلاف البيئة ، وليست ثوبا يرتديه الإنسان لموقف ثم ينزعه متى يشاء ، بل إنها ثوابت شأنها شأن الأفلاك والمدارات التي تتحرك فيها الكواكب لا تتغير بتغير الزمان لأنها الفطرة (فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله) (الروم:30)

حلف الفضول

تعتبر مكة مكان ولادة الرسول صلى الله عليه وسلم ،ولها معزة خاصة في قلبه، لأنها مسقط رأسه والمكان الذي نشأ فيه وقضى مراحل طفولته وشبابه ومهد رسالته النبوية الشريفة، لذلك هي ذات مكانة عظيمة في قلبه، كان للرسول مكانة مرموقة بين أفراد قبيلته وكان محط احترام فيها وصاحب سمعة طيبة، حيث كان يطلق عليه الصادق الأمين، لذلك كان يجالسهم مجالسهم الخاصة التي يتشاورون فيها أمور القبيلة، فالنبي صل الله عليه وسلم من أفضل أبناء قبيلة قريش ، وكان له المكانة المهمة بين أبناء هذه القبيلة حتى قبل أن يكون صاحب رسالة ، وكان دائم الاستماع إلى قلبه الذي كان بدله إلى أن هناك خالق عظيم لهذا الكون ، وهو الخالق وهو القادر على أن يتشئ هذا الكون بكبره وعظمته ، وبعد أن أصبح نبيا بقيت أخلاقه كما هي ، وبقي محافظا على شخصيته الإسلامية العظيمة ، التي شهد له بذلك كبار قريش رغم أنه عاد أوا النبي صل الله عليه وسلم في الدين والعلم وغير ذلك ، ومع بداية نزول القرآن كان أهل قريش يعلمون جيدا أن النبي محمد لا يكذب أبدا ، وأن كلام القرآن لا يمكن أن يكون كلاما بشريا ، ومع ذلك فقد قاموا بتكرانه بشكل كبير ، وعملوا على محاصرته هو وأصحابه ، حتى قرر الهجرة من مكة للمدينة ، فكان حلف الفضول مضرب المثل لمكارم الأخلاق ونصرة المظلوم وعدم نصرة الظالم مهما كانت مكانته بين قومه، كان لهذه الحادثة أثر عظيم في نفس الرسول صلى الله عليه وسلم لم يجعله فخورا بها حيث قال عنها «لقد شهدت مع عمومتي حلفا في دار عبد الله بن جدعان ما أحب أن لي به حمر النعم ، ولو دعيت به في الإسلام لأجبت». الرسول صلى الله عليه وسلم كما ذكرنا كان له مكانته بين قومه رغم صغر سنه حيث كان يشارك قومه تجاريهم السياسية والعسكرية ، حيثما رأى في هذه التجارب حقا وعدلا، لكنه كان رافضا كل معتقداتهم وتصوراتهم الخاطئة وأخلاقياتها الفاسدة ، بين حلف الفضول الأخلاق التي كان تتمتع بها قريش والقبائل العربية من نصرة الإنسان المظلوم والدفاع عن الحق مما كان مثار إعجاب للرسول المصطفى صلى الله عليه وسلم وفرح حيث كان ذلك ظاهر في حديثه عن ذلك الحلف الذي يعتبر من مفاخر العرب قبل الإسلام، فإن الحب وحماية الحق والحرص على تحقيق العدل هو هديه صلوات الله عليه، فهو القائل في الحديث المشهور عنه: (أيها الناس إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها).